الجزء السادس

الرسائل 1-2

أختي الحبيبة سلمى،

هل تذكرين يا أختاه يوم كونا فرقة الكشافة في المصح كيف ذهبنا اثر كلمـة ألقيتها بيننا نخفف ونسري عن اللواتي أقعدهن المرض عن الحركة والنشاط؟

لقد دخلت غرفة سهى البدوية، ولم أكن أعلم حينذاك اسمها.. ورأيت امـرأة منطوية على نفسها، بدينة طويلة خفرة رزينة، حزينة العينين على شـفتها العليـا وسم.. وكانت قد انتابتها الحمى وعبق وجهها فتبرعت أن أسـرح لهـا شـعرها المسترسل الفاحم وأجدله لها، وأرفّه عنها ببعض النكات.. فكانت تبتسم ولا تنبس بكلمة.. وحين بدا لفتاة مائعة أن تسخر منها عنّفتها بقسوة فانسحبت تشتمني.. لقد نقلها الطبيب الى غرفتي، ولم أدر كم أثّر بها هذا الصنيع الاّ بعد لأي.. لقد حملت لي من الولاء والوفاء ما جعلني أخشى أن تفقدني الإعتماد على نفسي..(ها أنـت ترين أنني لا أزال مخلصة لمبادئ فرقتنا الكشفية رغم انحلالها اثر سفرك) فهـي ترتب سريري وتغسل صحوني وتكوي ثيابي حين ترتفع حرارتي..

لم أكن أعلم عنها شيئا سوى أنها أم فقدت طفلهـا.. فهـي شـديدة الـتحفظ صموتة تنفر من ابتذال شؤونها الخاصة.. وحميدة العشرة حلـوة الحـديث حـين تستأنس.. حتى كان ذات يوم زارها رجل ضخم الجثة علمت أنه زوجها.. وحين مر تحت الشرفة متدثرا عباءته ومتلعفا كوفية وعقالا لا يبين منه سـوى عينيـه السوداوين الحادتين وهو يسأل عنها، كانت قربي ورأيتها ترتجف ويشحب وجهها وتهرع الى الغرفة ثم تختفي..

ويصرف الطبيب الزوج الهائج بلباقة فيعود بخفّي حنين.. ولم يدر أحد بمـا حدث ووجدت المريضات منه مادة لنسج الأقاويل وتلفيـق القـصص المثيـرة.. ووجدن في قصتها مشغلة من الملل الذي يلازمهن.. أما سهى فلقد بقيـت علـى صمتها إثر الحادث.. ورحنا في تلك الليلة نلعب الورق على سـريري، ولكنهـا

كانت ساهمة، وانفجرت فجأة بالبكاء.. وبغير أن أستفسرها شيئا راحت تقص علي سيرة حياتها.. لقد تأثرت بها كثيرا ووجدتها قصة تستحق أن تسمعيها، ولو أننـي أعترف بعجزي عن تصويرها ونقلي لها بكلماتي، كما فعلت بأسـلوبها وتعـابير وجهها ولهجتها البدوية الفصيحة.. وسأقصها عليك باختصار، وخيالـك كفيـل أن يقرأ بين السطور ويوشيها..

انها ابنة أخ لشيخ قبيلة بدوية، صغرى العائلة ومدلّلتها، وكانت تحب فتى من قبيلتها في مثل سنها، فرفضت تحبب إبن عم لها أرمل ثري في مثل سن والدها.. وفشلت محاولاته المستمرة لإغرائها بزواجه حتى كان ذات يوم لعبت به أصـابع القدر لعبة قاسية..

اعتدى أحد إخوتها على شرف فتاة من القبيلة، واكتشف الأمـر واعتـصب القوم مع أهل الفتاة يريدون اغتيال الفتى، أو أن يدفع لهم مبلغا مرهقا من المـال ويتزوجها..

كانت سهى تشهد ما جناه عليهم أخوها من وبال، ولا تـدري مـاذا تفعـل لإنقاذه.. وتقدم إبن العم بمد يد المعونة ولكن بشرط.. وفهمت سهى الشرط واختنق صدرها بنشيج حاد لأنها هي كبش الفداء.. ايماءة واحدة من رأسها تنقذ أخاهـا.. ولكن على أنقاض سعادتها..

كانت لحظة رهيبة تلك التي قررت فيها مصيرها.. سئلت فأطرقت والـدمع يجول في عينيها.. لم يكن بمقدورها أن تأبى على أخيها فرصة الإنقاذ، وليكن مـا يكون من شأنها..

في عصر ذلك اليوم عند البئر، مراح الهوى البريئ.. ودعت قلبها الى الأبد، فجن جنون الشاب الذي أحبها وأحبته.. لقد تمنّت في تلك اللحظة أن تنهي حياتهـا فتقدم نفسها للبئر الفاغر فاه طعاما.. ولكن من يدريها أن ابن عمها لن ينكث بالعهد اذ فاتته طلبته!..

وأذعنت للواقع القاسي، وعوضتها الأيام عن هناء الحـب لـذة الأمومـة.. وأكبت على وليدها تغمره بحنان طاغ.. وتذيب فيه عصارة قلبهـا، فتغفـل عـن حنينها وتثوب اليه أخرى، وتلوذ بالطفل من قسوة أيامها ومن جو خانق يـضغط

عليها.. مات والدها كمدا إثر الحادث، وتزوج أخوها الفتاة التي أغواها، وتحـول الحب حقدا، وراح ينتقم منها ويعذبها بقسوة لا تلين. وأعرس الشاب الذي أحبتـه الى أخت زوجها وابنة عمها.. وأضناها العذاب المكتتم فانهارت صحتها بـالرغم من قوة بنيتها، ونالها المرض فأبعدت عن طفلها الى المستشفى وقد جنّت لفراقه.. ولم يمض شهران حتى توفي الطفل إهمالا.. وسكن قلقها ليتحول حرقـة لاذعـة وآهات ودموعا صامتة..

وحدث ما لم يكن في الحسبان، وأضاف القدر الظلوم الى قلبها نازلة جديدة.. لقد طلق أخوها زوجته، بعد أن شفى روح الإنتقام منهـا.. فتزوجهـا.. زوجهـا الكريم!

وهكذا يا أختاه.. لك أن تتصوري تلك التي عرفت العز يوما، كتلة مهملة في المستشفى، وفي صدرها حب مخنوق وأمومة مطعونة وكبرياء جريحـة.. إنهـا ترحب بالمرض بل الموت.. ولعلك تعجبين بعد أن عرفت قـصتها مـن الحالـة النفسية الرهيبة التي تتملكها حين يبشرها الطبيب بقرب شفائها، وتكون سببا فـي انتكاسها من حين لآخر.. انها لا تريد لنفسها الشفاء.. هذا ما أدركته في لمحة من حديثها.. فنصحتها أن تفكّر بالإعتماد على نفسها بعد شفائها حتى لا تعود الى الجو الذي يسمم حياتها.. فأجابت أنها تتمنى أن تصبح ممرضة ولكنهم لا يرضون بهـا لأنها لا تعرف القراءة والكتابة.. فوعدتها خيرا، وأبرق وجهها بامتنان عميق يكاد يكون تقديسا..

ومنذ ذلك اليوم وهي تتلقى مني دروسا في مبادئ القراءة والكتابة..

سلمى.. انني لا أبالغ أن قلت لك أن لها عقلا متفوقا وذكاء نادرا.. حتى أنني أشعر بلذة شخصية في تعليمها لا أستحق عليها جزاءا.. ويكفيني أنني أبرز الـى النور، مواهب متميزة قضت عليها الظروف الإجتماعية أن تبقى في الظلام..

ولكن سهى ليست من الأشخاص الذين يسمحون لأنفسهم بالأخذ دون العطاء، أو في أن تأخذ وتعطي بمقدار.. فالكرم فطرة فيها ولو استطاعت أن تقتلع روحها وتهبني إياها عرفانا للجميل لما قصرت..

أشعر أنني أثرت في نفسها عاطفة الأمومة من جديد.. انها تقلق علي أكثـر مما أقلق على نفسي.. لا تغفل لحظة عن ميعاد دوائي ولو كان في منتصف الليل وفي قارس البرد.. ولقد علمتها مبادئ شغل الصوف، فنسجت لي جرزة صـوفية لتقدمها لي في عيد ميلادي..

بشراك يا سلمى.. لقد وزنت نفسي فاذا بي أزيد خمسة كيلو هـذا الـشهر.. ودلّ الفحص على الأشعة أن رئتي اليسرى قد زال منها الكهف والإرتشاحات الاّ غشاوة رقيقة مبهمة..

رجاء

* * *

حبيبتي رجاء،

أية بشرى حملتها لي رسالتك!

أتعلمين أنني ذهبت الى تجهيز البنات وبي رغبة لأغني، لأرقـص، لأطيـر خفيفة الجناحين طربا..

ورسالتك! ما هذا؟ قصة بسيطة آسرة ساحرة.. وأية روح سامية بدرت منك! دعيني أقبلك يا أختاه، ودعيني أهنئك! لمستقبل عظيم هيأتك الحياة وما أظنها قست عليك فترة من الزمن الاّ لتفجر فيك تلك الينابيع الثرة البرود..

رفيقة تلك القسوة وقد انجلت غمرتها.. انني أغفرها للزمن، وانني راضـية وقد انكشف الظلام عن فجري.. فأسرعي في الشفاء يا أختاه.. ان روحي المشوقة تنتظرك لاهفة اليك.. أسرعي يا صديقتي الوحيدة في الوجود!

سأروي لك هذا الحوار بيني وبين خالد حتى تكوني كأنك بيننا..

خالد بعد أن حصل على البكالوريا يريد أن ينتسب الى الجامعـة.. وأمـس جاءني بالكتب وبالبرنامج للإنتساب الى جامعة لندن ولكنه وجده صعبا عليه وقال لي: "تسجلي أنت بدلا عني، وأنا سأنتسب الى كلية الحقوق في دمشق".. انه منـذ مدة وهو يقنعني أن أستقر في التدريس، ويحاول اقتلاع كل أمل أرتجيه في الناحية الأدبية وكتابة القصص لأنها ذات مردود ضئيل.. ووالله يا أختاه لولا ما يتأجج في صدري من هذه الجمرات لأكتب وأنفث ما في روحي من مشاعر لرضيت التعليم

مهنة لي، وسعيت اليها وحللت كل مشاكل البيت المادية على حسابي، فكلهم عزيز علي.. ولكن الأمر فوق طاقتي وبقائي في سلك التعليم انتحار لموهبتي.. كل شيء يقوى بالمران وخلال الأشهر الماضية نضب معيني فما يبض بكلمة.. أملأ برنامجي الإذاعي بالترجمات ولا شيء من وضعي.. واني لأشعر أن ذوقي الأدبي قد فسد لما وقع تحت ناظري للطالبات من كتابة حنو علي اصلاحها.. قلت له سأفكر في الأمر أثناء الفرصة.. ربما احتجت لهذا، لأنه يتخرج من جامعة دمشق دفعة جديدة تنافسني.. وأنا ليست لدي شهادة تؤهلني للتدريس..

وقف خالد أمام مرآة خزانتي التي اشتريتها حديثا، وقد عقد ذراعيه خلف ظهره، وأخذ يتأمل قامته الطويلة النحيلة وتقاطيع وجهه وتساءل بلهجة يائسة وبصوت مسموع:

- رباه.. لم رميت الى الوجود بهذا المخلوق العاري من الجمال والوسامة؟ لم رسمت يداك فيه كل هذه العيوب؟ أية مجنونة يمكنها أن تحب من هو مثله؟

وضحك بمرارة وهو يشيح بوجهه عن المرآة التي لا تعكس في نفسه الاّ العذاب، والاّ مستقبلا متجهما لن يكون نصيبه فيه سوى الحرمان من الحب والحنان..

كنت جالسة الى طرف سريري أنسج لنفسي لفحة صوفية.. فكففت عن النسج وقد أهمني ما يعانيه خالد من قلق لا مبرر له.. وخشيت أن تتطور معه هذه العقدة الى ما يشوه حياته ويجعلها تعسة فخاطبته برقة:

- أيها الأحمق.. تعال إجلس أمامي ولنر فيما اذا كنت حقا ما تقول، وفيما اذا كانت هناك مشكلة جديرة أن تنغّص عليك.. تتمنى لو كنت جميلا.. حسنا.. أو تظن نفسك لست كذلك؟ لا تحسب أنني أتهكم.. فالقلب يرى الجمال قبل العين..
- ان التقارب الدائم يخفي على الأغلب العيوب كما يخفي المزايا.. انك لا تستطيعين أن ترينني كما أنا في الحقيقة، ولكن هذا لا ينفي أن لي أنفا

كبيرا وفما واسعا رقيق الشفاه وعينين لا تحسنان الرؤيا بدون نظـارات، عدا هذا النحول الذي لم ينفع معه علاج..

- ومع هذا لا شيء مما ذكرت يلفت الإنتباه.. ولولا إفاضتك بهذه الأمـور لما لاحظها أحد.. وبهذه المناسبة أحب أن أذكر لك حقيقة نفسية تتجاهلها ولقد وقعت لي أنا نفسي.. كنت أتردد على طبيب العائلة الدكتور حنا في القدس، وكنت أعجب بأحاديثه الشائقة إعجابا شديدا لعمق تفكيره ولخفـة روحه فما كنت أراه الاّ وسيما، حتى كان ذات يوم ذكر فـي معـرض حديثه أنه يعلم أن له أنفا قبيح الشكل شامخا الـى أعلـى وذا منخـرين واسعين أكثر من المألوف ولكنه تعلّم كيف يحبه.. وأقسم لك أنني لم أكن أنتبه اليه رغم أنني أعرفه منذ سنوات وأراه ما أراه.. ولكنني لـم أعـد أنظر اليه منذ ذلك اليوم الاّ وعيناي عالقتان بذلك الأنف، ورغم ذلك لـم يفقد إعجابي وبقيت أستمتع بأحاديثه وأستشعر الغبطة بمرآه كما لا أنعـم بها مع شاب وسيم ضحل التفكير..
- انك تتحدثين عن رجل بعمر والدك يحلو لك حديثه.. فهـل أنـا أريـد الصداقة.. انني أريد من يبادلني الحب.. ولن يحبني أحد..
- ان كنت تطلب الجمال لترضي نزعة الغرور في نفسك، وحتى يلتف بك الحاسدون والمعجبات يؤكدونه لك حتى يفسدوا عليك المزايا الأخرى من صفات الرجولة، وما تتطلبه من قوى نفسية وروحية وفكرية، فأنت خليق حينذاك أن تستفيد من جمالك بأن تصبح ممثلا أو معبودا للنساء فلا تسعد ولا تسعد معك امرأة.. أما اذا كنت تطلـب الجمـال لتكـون محبوبـا وتستهوي فتاة فاضلة تكون يوما زوجتك فأنت هنا تخطئ القياس.. فليس الجمال الاّ عنصرا ثانويا في تآلف القلوب.. ومفعوله السحري ذو تـأثير آني.. فالقلب المحب ينظر الى داخل الإنسان ولا يهمه الشكل الخارجي..
- انك يا سلمى تقللين من شأن الجمال لتسكبي في نفسي العزاء..
- لا تكن سخيفا.. فليس لرأيك كبير قيمة أمام رأينا نحـن فـي الرجـال.. النظارات! تكسب الرجل مهابة، وتجمل بعض الوجوه ان أحسن انتقاؤها.

والى هذا تبدو العينان خلف نقاب زجاجي شفاف أكثر جاذبيـة وأزخـر تعبيرا، وكأنما يحيط بهما لغز ساحر.. وأما ما يبدو من نحولك فالـسبب في أن جسدك ليس ممتلئا.. أما أكتافك فعريضة وشكلك رياضي، ويمكنك أن تسير بمؤهلاتك الجسمية نحو التكامل.. ويكفي أنك سليم البنية قـوي العصب.. وأمثالك من العـصبيين ذوي العواطـف الحـادة والحركـة المستمرة لا يسمنون، لأنهم يحرقون أكثر مما يتزودون.. ولك ابتـسامة حلوة بالرغم مما تعنف في الحكم على شفتيك.. أما أنفك فلا يمكنـك أن تضعه في قائمة الأنوف الجميلة، ولكنك لا تستطيع أن تضعه في قائمـة الأنوف الدميمة.. عادي لا يثير الإهتمام، وكلما زاد وزنك بدا أكثر تناسقا مع وجهك..

كان يهز رأسه على غير اقتناع فأضفت:

- لو كنت مكانك لنسيت التفكير في شكلي وحولت اهتمامي الى ما يخصب عقلي وروحي من ثروة ثقافية، فأكون لنفسي شخصية جذابـة ذات أثـر فعال في الحياة..

وتركته أكثر رضى عن نفسه وأنا أعلم أن سحر كلماتي لا يدوم طـويلا، وعلي أن أضرب على هذه الوتيرة فترة طويلة لترسخ في نفسه.. فكثيرا ما كانت تعاوده النظرة ذاتها، وتبدر منه كلمة تؤكد لي أن ما أقوله يذهب أدراج الرياح..

نظرت الى صورتك.. تذكرين الجميع وتنسينني! وتخيلتك أمـامي بروبـك الأرجواني الطويل والهواء يداعب شعرك.. حسناء، وردة تفتحـت، فقبلـت صورتك.. الصحة والسعادة نصيبها! هذا ما أدعو به حين أصـبح وحـين أمسي.. ونظرت الى المصح خلفك، لقد غدا حبيبا الى نفسي.. بقعة مقدسة.. قبلتي.. لأن في ركن فيه رجائي.. أشرت بإصبعي الى الغرفة حيث تنامين.. هنا هي مستلقية في فراشها.. فالبرد يمنعها من مغادرته.. لعلها تستمع الـى أغاني المذياع.. لعلها تقرأ أحد الكتب من الصف على إفريز نافذتها.. لعلها تحادث الدكتور أحاديثها الشيقة التي أبت علي الإضطلاع عليها.. أو لعلهـا

في تلك اللحظة طاف بخيالها ذكراي فانثنت الى زميلاتها تستفيض بالحديث عني، كما أفيض بدوري بالحديث عنها..

في كل مكان أنت.. في عيوني صورتك، في أذني صوتك، في كل جارحـة من جوارحي تخطرين، ولكنك ويا للأسف لست هنا قريبة مني..

في ليلة عيد ميلادك احتفلت به في أعماقي، أسأل السماء والأرض لك الشفاء العاجل، والعمر الحافل الطويل، والسعادة والمسرة والحبور..

أتمنى أن تكون الهدايا قد راقتك.. ألم نكن جميعنـا مـوفقين؟ لقـد زارتنـا الممرضة الآنسة صفاء في الوقت المناسب.. كيـف كـان طعـم الكعكـة ومنظرها؟ أخشى أن يكون السفر ضعضع كيانها أو شوهها.. هـل بلّغتـك القبل والنكت التي رويناها لها لتوصلها اليك؟

احتفلنا أيضا بعيد ميلاد هشام وأوقدنا له الشموع وكم كان فرحـه بهـديتك وهدية بابا الذي فاجأنا بقدومه في ذلك اليوم السعيد.. سأترك لهشام أن يصف لك عيد ميلاده.. لولا انتفاخ أصابعي من التثليج لكتبت لك أكثر!

سلمى

* * *